

KIYEM KIYÂDIYYE NEBEVIYYE: KIRÂ'E FI'S-SAHÎHAYN

YIL / YEAR 13, SAYI / ISSUE 25 (BAHAR / SPRING 2015/1) ss. 185 - 204

NAFEZ HUSSAİN HAMMAD

Distinguished Professor, Hadith Sciences
Department at IUG Islamic University, Gaza / Palestine
profhammad@hotmail.com

قيم قيادية نبوية، قراءة في الصحيحين

الملخص: يكشف البحث عن جانب من القيم القيادية النبوية لا سيما العسكرية منها. من خلال توجيهاته لقادة سرايا. أرسى فيها قواعد وقيماً علياً تقوم على نشر الخير للناس. تعلق فيها كلمة الله تعالى، ويدافع عن الأرض والعرض والكرامة الإنسانية. لتكون نبراساً يقتدي بها المسلمون ويهتدون بهديها.

المفاهيم المفتاحية: القيادة النبوية، عصر النبي، المجتمع الإسلامي، البخاري، مسلم

PROPHETIC LEADERSHIP ETHICS: A READING IN THE TWO SAHIHS

Abstract

The research reveals a side of the leadership ethics of the Prophet, especially the military ones. Through his guidance to leaders of platoons, the prophet set eminent rules and values that are based on the deployment of the good for the people. It aims to raise the word of Allah almighty, and to defend land, honour and human dignity. This guidance is a beacon for Muslims to follow and be guided towards its teachings.

Keywords: Prophet, leadership, hadith, al-Buhari, Muslim

مقدمة: الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبيِّنا مُحَمَّد، وعلى آله الطَّيِّبين الطَّاهرين، وصحابته أجمعين، والتَّابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد فإن قادة المسلمين اليوم مطالبون بتطبيق ما كان رسول الله يمارسه في غزواته واقعاً عملياً ما أمكن ذلك في مواجهتهم لأعداء الله، امثالاً لقول الله (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا) [الأحزاب: 21]، وجعلها بموازاة

توجيهاته (ص) في الاقتداء به في الصلاة حين قال: "صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي" [البخاري: 6008]، وفي الحج حين قال: "خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ" [مسلم بنحوه: 1297]. إنه القدوة الحسنة في صفاته وأقواله وأفعاله. وإن من العَبَث أن نعتبر سيرته ومغازيه مجرد قصص، إنما هي ترجمة عملية للإسلام تجسدت في حياته. وأبرزت عظمته. فلا يدخل معركة إلا وعرف عن عدوه كل ما ينبغي معرفته. فيضع خطته القتالية القائمة على تقدير سليم للموقف بعقلية عسكرية فذة تسبق عصره. كما كان يُهَيِّئُ أصحابه ويُعَدِّمُ لمواجهته كل موقف بما يناسبه.

وبعد النَّظَر والتَّأمُل في أحاديث أصحَّ كتابين جمعا حديث رسول الله (ص)، وما صاغه الإمام البخاري من تراجم لأحاديث كتابه. رأيتُ الاختصار عليهما في إبراز نماذج لتلك القيم. وجاء البحث في مباحث أربعة على النحو الآتي: الأول: صفات القائد وخصائصه في السنة النبوية. والثاني: قيم قيادية فعلها رسول الله (ص). والثالث: قيم قيادية أوصى بها رسول الله (ص) صحابته الكرام. والرابع: قيم قيادية فعلها صحابة نوابغ أكفاء بطلب منه (ص) أو موافقته. ثم خاتمة تشمل خلاصة النتائج.

المبحث الأول: صفات القائد وخصائصه في السنة النبوية:

فمن هذه الصفات والخصائص:

= أن يكون القائد دائم الاتصال بالله بالذكر والدعاء أثناء المعركة وبعدها، يقينه تام، وثقته كاملة أنهما من أقوى عوامل النصر وأسلحته. ففي بدر أثناء المعركة، نجد نبينا (ص) ينظر إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاث مائة وتسعة عشر رجلاً فيستقبل القبلة، ثم يمد يديه، فجعل يهتف بربه يناشده ما وعدّه من النصر: ... فأمدّه الله بالملائكة [مسلم: 1763]. وفي الخندق، يتهل إلى ربه، يدعو على المشركين، فيقول: اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، سَرِيعَ الْحِسَابِ، اللَّهُمَّ اهْزِمِ الْأَحْزَابَ، اللَّهُمَّ اهْزِمِهِمْ وَزَلِّلِهِمْ [البخاري: 2933، ومسلم 1742]. وفي حنين، يدعو ويستنصر، ... اللَّهُمَّ نَزِّلْ نَصْرَكَ [مسلم: 1742]. وبعد المعركة يكبر على كل شرف من الأرض ثلاث تكبيرات، ثم يقول: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ... صَدَقَ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ [البخاري: 1797، ومسلم 1344].

= وأن يكون ممن يبكي خوفاً من عذاب الله، ففي بدر بعد أن قبل (ص) فداء الأسرى، يبكي، ويقول لعمر حين سأله عن السبب: أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ

أَصْحَابُكَ مِنْ أَخَذِهِمُ الْفِدَاءَ، لَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ [مسلم: 1763].

= وأن يكون القائد زاهداً، ولو أراد (ص) جمع مال من غزواته، لرأيت كم كان غناه، ولكنّه تُوفِّيَ وَدَرَعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ بِثَلَاثِينَ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ [البخاري: 2916].

= والقائد الواثق بنصر الله، ففي الأحزاب، رغم ما كانوا فيه من حصار ظالم، بلغت فيه القلوب الحناجر، وقد نقضت قريظة عهدها، وظهرت خيانتها، إلا أنه (ص) يُبَشِّرُ أَصْحَابَهُ، وهذا مما يدل على بُعد نظر القائد، وحكمته في إعلان استراتيجيته الحربية، التي تسمى بالمفهوم الحديث «استراتيجية الردع»، فيقول لهم: «الآن نَغْزُوهُمْ وَلَا يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ» [البخاري: 4110]

= وقائد يشاور الجند، ويأخذ برأيهم في الغزوات، لا سيما ذوي الخبرة والرأي منهم، ولا ينفرد بالقرار، وفي القرآن الكريم (وشاورهم في الأمر). ويُعِينُونَ بِهَا الْبَخَارِي، مع الآية الأخرى (وأمرهم شورى بينهم). ويقول: وشاور النبي (ص) أصحابه يوم أحد في المُقَامِ وَالخُرُوجِ، فَرَأَوْا لَهُ الخُرُوجَ [البخاري، كتاب الاعتصام، الباب رقم 28]. وفي بدر، قبل المعركة شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان... إلى أن قال سعد بن عبادة: والذي نفسي بيده لو أمرتُنا أن نخيضها البحر لأخضناها... [مسلم: 1779] (1). وبعد المعركة، لَمَّا أَسْرُوا الْأَسَارَى، يَسْتَشِيرُ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ: مَا تَرَوْنَ فِي هَؤُلَاءِ الْأَسَارَى؟ [مسلم: 1763].

وعام الحديبية، وهم في الطريق أتاه عيْنُهُ، قَالَ: إِنَّ قُرَيْشًا جَمَعُوا لَكَ جُمُوعًا... فَقَالَ: أَشِيرُوا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيَّ، أَتَرَوْنَ أَنْ أَمِيلَ إِلَى عِيَالِهِمْ وَذَرَارِيِّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَصُدُّونَا عَنِ الْبَيْتِ، فَإِنْ يَأْتُونَنَا كَانَ اللَّهُ قَدْ قَطَعَ عَيْنًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ... إِلَى أَنْ قَالَ: امْضُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ [البخاري: 4178].

وهكذا نرى التنوع في المستشارين مراعاةً للبيئة والتربية والتخصص والسّن والتجربة، والاختيار لكل أمر ما يناسبه كمًّا وكيفًا، فثمة أمرٌ يحتاج إلى عدد قليل، وآخر يحتاج إلى عدد كثير، فقد كان أحيانًا يستشير أبا بكر وعمر، وأحيانًا يستشير الأنصار، وفي بعض الأمور يستشير المهاجرين والأنصار معًا، وصولًا إلى الحلول الابتكارية. وإذا كان رسول الله (ص) وهو الموحى إليه من الله تعالى يستشير أصحابه، فعلى غيره من

¹ وانظر: شرح النووي على صحيح مسلم (124/12).

القادة استشارة أصحابهم من باب أولى، وهذا ما قاله ابن تيمية: «وغيره (ص) أولى بالمشورة»⁽²⁾.

فالشورى مبدأ رباني، ومدرسة نبوية، ومطلب مهم تستجمع فيه طاقات العقول كلها لاستخلاص الرأي الصالح، وتدل على بعد نظر، وحسن تقدير، لذا على القادة اليوم إشراك الأتباع من ذوي الخبرة والاختصاص في القرار، فتطيب بذلك نفوس الجند، وتقوى عزائمهم، ويصحح القائد المسار، ويتجنب الخطأ والزلل.

= ومن الصفات أن تكون القيادة قوية حازمة في مواقف تتطلب تغليب العقل على العاطفة في اتخاذ القرار، فالتبني (ص) بعدما شاور أصحابه يوم أحد في المقيم والخروج، فرأوا له الخروج، وكبس لأمتة وعزم، قالوا: أقم، فلم يمل إليهم بعد العزم، وقال: لا ينبغي لنيي يلبس لأمتة فيضعها حتى يحكم الله. كما عنون بذلك البخاري [كتاب الاعتصام، الباب رقم 28].

ويوم أحد أيضاً، وقد جعل (ص) علي الرجالة وكانوا خمسين رجلاً عبد الله بن جبير، قال لهم: إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمننا القوم وأوطاناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم، فهزمهم [البخاري: 3039]. فهزم المسلمون المشركين في بداية الأمر، حين التزموا أوامر القائد، ثم تغير الوضع عند مخالفتهم، كما هو معروف.

وفي الحديبية، وما كان من إصراره على إتمام الصلح؛ لما يعلم ما فيه من خير للمسلمين، فلما كتب علي بن أبي طالب بينهم كتاباً، فكتب «محمّد رسول الله»، فقال المشركون: لا تكتب «محمّد رسول الله»، لو كنت رسولاً لم نقاتلك، فقال لعلي: أمح، فقال علي: ما أنا بالذي أمحاه، فمحا رسول الله (ص) يده، وصالحهم [البخاري: 2698، ومسلم: 1783].

فهذه مواقف تحتاج ترجيح العقل، لذا وجب الحزم في بعضها، وتصميم القائد على إنفاذ ما يريد، والبت فيما يتوقع فيه اختلاف في الرأي بين الجنود، وتشتت في المواقف، فلا يتردد في إصدار قرارات قوية واضحة، يلزم جيشه بها، ولا يضعف في ذلك.

ولذا فإن القيادة الحازمة الجادة الواعية، صاحبة الإرادة الصلبة، والهمة العالية القوية الحاسمة، في إنفاذ الرأي وعدم التردد، تشكل رادعاً لكل من يريد زعزعة

² انظر: مجموع الفتاوى (387/28).

استقرار المجتمع، ودوافع رئيسة للعمل على تحقيق الأهداف من نشر الأمن والعدل، ومنع الظلم والبغي والانحراف والتخريب والتدمير والفساد. فهل نجد هذه القيادة اليوم، أم نفتقدها؟!!

= ويشترط في القائد الخبرة والكفاءة والقدرة، وأن يكون أهلاً لذلك، فهو مَنْصَبٌ مُهم وحساس، ولذا يستبعد الضعيف رغم صلاح دينه، وعدم التسرع في تكليف من لا يستحق، والتنبيه على أنها مسئولية وأمانة. فلا يراحم عليها من ليس لها، مهما كانت درجة إيمانه وتقواه. فلولا القيادة الحكيمة لاختلفت موازين الدولة، وتعرضت للضعف والضياع.

فهو (ص) القائل: «لَا يَسْتَرْعِي اللَّهُ عَبْدًا رَعِيَّةً يَمُوتُ حِينَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لَهَا إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ». وهذا لفظ مسلم، [142]. وعند البخاري: «مَا مِنْ عَبْدٍ اسْتَرْعَاهُ اللَّهُ رَعِيَّةً فَلَمْ يَحْطِهَا بِنَصِيحَةٍ إِلَّا لَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ» [7150]. وَأَبُو ذَرٍّ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا تَسْتَعْمَلُنِي؟ قَالَ: فَضْرَبَ بِيَدِهِ عَلَيَّ مَنْكِبِي، ثُمَّ قَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خَزِيٍّ وَنَدَامَةٌ إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا» [مسلم: 1825]. فلا يمكن لشخص لا يمتلك الخبرة العسكرية، ولا يملك سمات القيادة، ولا يستطيع السيطرة على المواقف والأحداث، وليست لديه الكفاءة المبنية على العلم العسكري الحديث، والخبرة الميدانية، أن يكون قائداً.

= وقائد يشارك الجنود العمل، فَيَوْمَ الْأَحْزَابِ يَنْقُلُ (ص) التُّرَابَ وَقَدَّ وَارَى التُّرَابَ بِيَاضِ بَطْنِهِ، وَهُوَ يَقُولُ: لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا، فَأَنْزَلْنَا سَكِينَةً عَلَيْنَا وَثَبَّتْ الْأَقْدَامَ إِنَّ لَاقِينَا، إِنَّ الْأَلَى قَدْ بَعُؤَا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةَ أَبِيْنَا [البخاري: 2837، ومسلم 1803].

إنها علاقة التعاون بين القيادة والجنود، فجابر، يقول: إِنَّا يَوْمَ الْخَنْدَقِ نَحْفُرُ، فَعَرَضَتْ كُدَيْةٌ شَدِيدَةٌ فَجَاءُوا النَّبِيَّ (ص)، فَقَالُوا: هَذِهِ كُدَيْةٌ عَرَضَتْ فِي الْخَنْدَقِ، فَقَالَ: أَنَا نَازِلٌ، ثُمَّ قَامَ وَبَطْنُهُ مَعْصُوبٌ بِحَجَرٍ، وَلَبِثْنَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لَا نَذُوقُ ذَوْاقًا، فَأَخَذَ النَّبِيُّ (ص) الْمِعْوَلَ فَضْرَبَ فَعَادَ كَثِيبًا أَهْيَلٌ أَوْ أَهْيَمٌ [البخاري: 4101].

= وقائد يرفق بالرعية، فهو (ص) القائل: «اللَّهُمَّ مَنْ رَفَقَ بِأُمَّتِي فَارْفُقْ بِهِ، وَمَنْ شَقَّ عَلَيْهِمْ فَشَقَّ عَلَيْهِ» [مسلم: 1828].

المبحث الثاني: قيم قيادية فعلها رسول الله (ص)، وهي كثيرة، ومنها على سبيل المثال:

= الشجاعة والإقدام، فكان يغزو بنفسه، ويقدم على المهمات الخطيرة، وما يدل على ذلك من ضرورة وجود القائد المقدم، وفي الحديث: كَانَ (ص) أَحْسَنَ النَّاسِ، وَأَجْوَدَ النَّاسِ، وَأَشَجَعَ النَّاسِ، وَقَدْ فَرَعَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ لَيْلَةً سَمِعُوا صَوْتًا، فَتَلَقَّاهُمْ عَلَى فَرَسٍ لِأَبِي طَلْحَةَ عُرِي، وَهُوَ مُتَقَلِّدٌ سَيْفَهُ، يَقُولُ: لَمْ تُرَاعُوا لَمْ تُرَاعُوا [البخاري: 3040، ومسلم: 1776].

وعلى أرض المعركة في مقدمة جنده، وأقربهم إلى العدو، يقود المعركة بنفسه. فيوم بدر، يَأْتِي الْمُشْرِكُونَ، فَيَقُولُ (ص): لَا يُقَدِّمَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَيَّ شَيْءٍ حَتَّى أَكُونَ أَنَا دُونَهُ [مسلم: 1901].

ويوم حنين، وَمَا رُبِّيَ مِنَ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ أَشَدُّ مِنْهُ، يَقُولُ رَجُلٌ لِلْبِرَاءِ: يَا أَبَا عُمَارَةَ، أَوْلَيْتُمْ يَوْمَ حَنِينٍ؟ قَالَ الْبِرَاءُ: أَمَّا رَسُولُ اللَّهِ (ص) لَمْ يُؤَلِّ يَوْمَئِذٍ، كَانَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ أَخَذًا بَعْنَانَ بَعْلَتَهُ، فَلَمَّا غَشِيَهُ الْمُشْرِكُونَ نَزَلَ، فَجَعَلَ يَقُولُ: أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ [البخاري: 3042].

قَالَ الْبِرَاءُ: كُنَّا وَاللَّهِ إِذَا أَحْمَرَ الْبَأْسُ نَتَّقِي بِهِ، وَإِنَّ الشُّجَاعَ مَنَّا لِلَّذِي يُحَاذِي بِهِ، يَعْنِي النَّبِيَّ (ص) [مسلم: 1776]. وهذه الشجاعة منه، وهذا الإقدام، يزرع الثقة بين القيادة والجنود، ويعزز التفاف الجند حول قادتهم، وهذا ما ينبغي على القادة فعله من تقديم أرواحهم وأموالهم وأبناءهم قبل جنودهم.

= ويثبت عند المواجهة، قَالَ الْعَبَّاسُ: لَمَّا التَّقَى الْمُسْلِمُونَ وَالْكَفَّارَ وَلَّى الْمُسْلِمُونَ مُدْبِرِينَ، فَطَفِقَ رَسُولُ اللَّهِ (ص) يَرْكُضُ بَعْلَتَهُ قَبْلَ الْكَفَّارِ، قَالَ: وَأَنَا أَخَذَ بِلِجَامِ بَعْلَةَ رَسُولِ اللَّهِ (ص) أَكْفَهْهَا إِرَادَةَ أَنْ لَا تُسْرِعَ، وَأَبُو سُفْيَانَ أَخَذَ بِرِكَابِ رَسُولِ اللَّهِ (ص) [مسلم: 1775].

ولذا على القائد أن يكون بصيراً بأمور الحرب، يحسن تدبيرها، مميزاً بين الجند خبرة وكفاءة، ورأي وعقل، يفوقهم بما لديه من قوة وشجاعة، ومكابدة العدو، ودراية باستخدام السلاح بكافة أنواعه، إضافة إلى الحكمة واللين والكرم والوفاء والصدق.

وهذه يمكن أن تلحق بالصفات في المبحث الأول.

= ويستعرض الجيش؛ لإظهار القوة، كما حدث يوم فتح مكة بتقسيم الجيش إلى مجموعات وكثائب، لكل كتيبة لواء، وكان أبو سفيان أسلم في ذلك اليوم،

فقال رسول الله (ص) للعباس: احبس أبا سُفْيَانَ عِنْدَ حَطْمِ الْخَيْلِ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ، فَحَبَسَهُ الْعَبَّاسُ، فَجَعَلَتْ الْقَبَائِلُ تَمُرُّ مَعَ النَّبِيِّ (ص) تَمُرُّ كَتَيْبَةً كَتَيْبَةً عَلَيَّ أَبِي سُفْيَانَ، ... حَتَّى أَقْبَلَتْ كَتَيْبَةً لَمْ يَرِ مِثْلَهَا، قَالَ: مَنْ هَذِهِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الْأَنْصَارُ، عَلَيْهِمْ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ مَعَهُ الرَّايَةُ ... ثُمَّ جَاءَتْ كَتَيْبَةٌ وَهِيَ أَقْلُ الْكِتَائِبِ فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ (ص) وَأَصْحَابُهُ، وَرَايَةُ النَّبِيِّ (ص) مَعَ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ [البخاري: 4280].

= ويُجيز من يقدر على القتال، وتتوفر فيه الاستطاعة البدنية، على من لا يقدر، فلم يُجز ابنُ عُمَرَ يَوْمَ أُحُدٍ وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعِ عَشْرَةَ سَنَةً، وَأَجَازَهُ يَوْمَ الْخَنْدَقِ وَهُوَ ابْنُ خَمْسِ عَشْرَةَ سَنَةً [البخاري 2664، ومسلم 1868].

وكان (ص) قائداً لا يستعين بالمشركين في الغزوات. فعندما عرّض المشرك نفسه لقيقاتل مع جيش المسلمين يوم بدر، قال له رسول الله (ص): تُوْمَنُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، قَالَ: لَا، قَالَ: فَارْجِعْ، فَلَمَّ اسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ، وَتَكَرَّرَ طَلِبُ الْمَشْرِكِ الْمَشَارِكَةَ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ (ص) كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ، حَتَّى إِذَا قَالَ: نَعَمْ، قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ (ص): فَانْطَلِقْ [مسلم: 1817]. فكانت عبارته (ص) صريحة ومباشرة في رده وهو على شركه، حتى إذا آمن وشهد الشهادتين قبله.

فعدم قبول الكافر في صفوف الجيش المسلم، وإن كان فيه من القوة، أو ما لديه من الخبرة والإمكانات التي تساعد المسلمين في حربهم ضد الكفار، هو الأصل. فقد أتى النبي (ص) رَجُلٌ مُقَنَّعٌ بِالْحَدِيدِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَقَاتِلُ أَوْ أُسَلِّمُ؟ قَالَ: أُسَلِّمُ ثُمَّ قَاتِلْ، فَاسْلَمْ، ثُمَّ قَاتِلْ فَاقْتُلْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ص): عَمِلَ قَلِيلًا وَأَجَرَ كَثِيرًا [البخاري: 2808، ومسلم 1900].

ولذا فإنَّ الشوكاني، وهو من المتأخرين الذين اطلعوا على أقوال من سبقه من العلماء، يقول: «والحاصل أنَّ الظاهر من الأدلة عدم جواز الاستعانة بمن كان مشركاً مطلقاً، لما في قوله (ص) «إنَّا لا نستعين بالمشركين» من العموم، وكذلك قوله «أنا لا أستعين بمشرك»⁽³⁾.

قلت: لفظة مشرك في قوله (ص) «لن أستعين بمشرك» نكرة جاءت في سياق النفي، ومن المعلوم لدى علماء أصول الفقه أنَّ النكرة في سياق النفي صيغة من صيغ العموم، فتعمُّ كلَّ مشركٍ أفراداً كانوا أو دولاً.

³ نيل الأوطار (315/9)، وانظر: المحلى، لابن حزم (200/11).

هذا هو القرار النبوي الحكيم المتوافق مع الآيات القرآنية التي تنهى عن موالاته الكافرين والركون إليهم، واتخاذهم أولياء. ومنها) وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ (هود: 113]. و) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (المائدة: 51]. و) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ... (الممتحنة: 1]

ولقد فهم الصحابة رضي الله عنهم هذا المعنى، فلم يستعينوا بالكفار، حتى في غير الأعمال العسكرية، فعمربن الخطاب ينكر على أبي موسى الأشعري استعماله كاتباً نصرانياً، إلى أن قال له: أما وجدت في أهل الإسلام من يكتب لك؟! لا تدنهم إذ أقصاهم الله، ولا تأمنهم إذ خونهم الله، ولا تعزهم بعد أن أذلهم الله(4). [البیهقي: 127/10].

وهذا ما يراه الإمام أحمد، فحين سأله تلميذه أبو طالب: يُستعمل اليهودي والنصراني في أعمال المسلمين مثل الخراج؟ قال: لا يُستعان بهم في شيء(5).

أقول: وأما ما جاء من نصوص دلّت على استعانة رسول الله (ص) بمشركين، فإنما هي آثار ومراسيل ضعيفة ومضطربة مردودة، سوى ما جاء من أنه استعار سلاحاً يوم حنين من صفوان بن أمية قبل إسلامه(6)، [أبو داود: 3562، وأحمد: 15302، والحاكم 54/2]. كما استأجر يوم الهجرة هادياً ماهراً بالطريق [البخاري: 2263]. وليس في النصين عندي دلالة صريحة على الاستعانة بالمشركين.

والخلاصة: أن القاعدة النبوية هي عدم الاستعانة بالمشركين، فالمسلمون يخوضون المعارك من أجل رفع راية لا إله إلا الله، وتحكيم شرع الله، ولا يتصور الاستعانة بكافر ومشرك يمثل نظاماً يسعى المسلمون إلى تغييره. فأما إن كان هناك استثناء للضرورة، فمشروط بالألا يكون للمشركين شوكة، وأن يؤمن جانبهم، فلا يطلعوا على عورات المسلمين، ولا يدخلوا في المشورة معهم، أو يتدخلوا في شئونهم، قال

⁴ وحسن ابن حجر سنده في فتح الباري (184/13).

⁵ انظر: أحكام أهل الذمة، لابن القيم (448/1). وهذا ما أكده ابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم (164/1)، وابن مفلح في الآداب الشرعية (275/1).

⁶ وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. وصحح الألباني الحديث بمجموع طرقه. إرواء الغليل (344/5).

(وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً) [النساء: 102]. وكل عداوة قد ترجى إزالتها، إلا عداوة من عاداتك في الدين.

ثم هي الضرورة المتعلقة بالدين، ومصصلحة الإسلام والمسلمين، لا التي تتعلق بتثبيت عرش الحاكم، وأن الأمر في ذلك يرجع إلى اجتهاد الإمام وأهل الرأي والمشورة، بأن وجدت مثلاً احتياطات كافية تمنع تسرب المعلومات للأعداء، والله أعلم⁽⁷⁾.

المبحث الثالث: قيم قيادية أوصى بها رسول الله (ص) صحابته الكرام.

= فأوصى أن يكون القائد يقظاً، يُعْمَلُ عقله، ويخطط قبل مواجهة الأعداء، ويستخدم التمويه والتخذييل والتستر والتخفي والكتمان والتورية والتضليل والتغريب بالعدو، فيفاجأهم بما لم يعهدونه من أساليب، ويباغتهم بطرق جديدة في القتال، مع أخذ الحذر، وهو (ص)، القائل: الْحَرْبُ خِدْعَةٌ [البخاري 3028، ومسلم 1740]. مما يدل على مشروعية الخداع الحربي.

كما كان يُخفي الأسرار عن الأعداء، فَكَلَّمَا يُرِيدُ غَزْوَةً يَغْزُوهَا إِلَّا وَرَىٰ بِغَيْرِهَا [البخاري: 2947، ومسلم: 2769]. ولذا على القائد اتخاذ أساليب جديدة تُذهل العدو، وتشل حركته، وتسيطر عليه، فيقع فريسة سهلة، وقد اتفق العلماء على جواز خداع الكفار في الحرب، وكيف أمكن الخداع، إلا أن يكون فيه نقض عهد أو أمان فلا يحل⁽⁸⁾.

وكان (ص) يحافظ على أسرار الدولة، فحين بعث علياً والزبير والمقداد، قال لهم: أَنْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاحٍ، فَإِنَّ بِهَا ظِعِينَةً وَمَعَهَا كِتَابٌ، فَخُذُوهُ مِنْهَا. قَالَ عَلِيٌّ: فَانْطَلَقْنَا... الحديث [البخاري: 3007، ومسلم: 2494].

= وأوصى أن يحث القائد جنوده على القتال، ويشوقهم بما عند الله من الثواب، ويُرغِبهم في الإقبال عليه، ويحذر من التقاعس عن نصرة دين الله، أو القعود عن الجهاد.

إن توجيهاته وتوصياته قيم مهمة، لها أثر بالغ في نفوس المقاتلين، حيث تناول التعبئة الجهادية، ورفع الروح المعنوية عندهم، لذا وجدنا الصحابة أشد حرصاً على

⁷ وانظر: شرح صحيح مسلم، للنووي (199/12)، ومختصر اختلاف العلماء، للطحاوي (428/3)، والتمهيد، لابن عبد البر (36/12).

⁸ انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (45/12)، وفتح الباري (158/6).

الموت. من حرص أعدائهم على الحياة. وفي القرآن (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) [التوبة: 111].

وفي بدر، يقول (ص) لصحابته: قَوْمُوا إِلَيَّ جَنَّةَ عَرْضِهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، فَيَقُولُ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ الْأَنْصَارِيُّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ جَنَّةَ عَرْضِهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: بَخٍ بَخٍ ... فَأَخْرَجَ تَمْرَاتٍ مِنْ قَرْنِهِ فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ، ثُمَّ قَالَ: لَنْ أَنَا حَيِّتٌ حَتَّى أَكُلَ تَمْرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا لِحَيَاةٍ طَوِيلَةٍ. قَالَ: فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ التَّمْرِ، ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قَتَلَ [مسلم: 1901].

وفي أحد، يقول لهم: مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الْجَنَّةُ، أَوْ هُوَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ [مسلم: 1789].

وفي ليلة الأحزاب، وقد أَخَذَتْهُمْ رِيحٌ شَدِيدَةٌ وَقُرْتُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ص): أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ [مسلم: 1788].

وهكذا يجعل صحابته في جاهزية عالية ومعنويات مرتفعة، ويعد من يقاتل منهم أو يُقْتَل. أن يكون معه في جَنَّةِ عَرْضِهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، ويشهرهم بالنعيم المقيم يوم القيامة. ويؤكد به قوله: وَأَعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ [البخاري: 2818، ومسلم: 1742]. وقوله: انْتَدَبَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ، لَا يَخْرُجُ إِلَّا جِهَادًا فِي سَبِيلِي، وَإِيمَانًا بِي، وَتَصَدِيقًا بِرَسُولِي، فَهُوَ عَلَيَّ ضَامِنٌ أَنْ أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ أَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ [مسلم: 1876]. وقوله: إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ [البخاري: 2790] (9).

= وأوصى أن يحث القائد جنوده على الاهتمام بالثغور، والمرابطة على الحدود، وأن لهم بذلك الثواب العظيم، فيقول: رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا، وَمَوْضِعٌ سَوِّطٌ أَحَدَكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا، وَالرَّوْحَةُ يَرْوِحُهَا الْعَبْدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ الْغَدْوَةُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا [البخاري: 2892، ومسلم: 1881]. ويقول: رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأَجْرِي عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الْفِتَانَ [مسلم: 1913].

= وَأَنْ يَحْرَضَ عَلَى الرَّمِي، والاستعداد والتدريب، وإظهار قوة المسلمين؛ لإرهاب الأعداء، امثالاً لقول الله تعالى: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ) [الأنفال: 60]. فحين مرَّ (ص) على نفرٍ من أسلمٍ يتنصّلون، قال لهم: ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً، ارموا.. [البخاري: 2899]. ويقول: من علم الرمي ثم تركه فليس منا، أو قد عصي [مسلم: 1919].

= وَأَنْ يَرِي أصحابه في كل موطنٍ على الشجاعة، والشدة والحزم، ويحذرهم من الجبن، والفرار من المعارك، امثالاً لقول الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ وَمَنْ يُولِهِمْ يَوْمَئِذٍ ذُرْبَهُ إِلَّا مَتَّحِرِفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) [الأنفال: 15، 16].

ففي بدر، يقول مالك بن ربيعة أبو أسيد، قال لنا رسول الله (ص) يوم بدر: إِذَا أَكْتُبُوكُمْ يَعْنِي كَثْرُوكُمْ فَارْمُوهُمْ وَاسْتَبَقُوا نَبْلَكُمْ [البخاري: 3985] (10). إنه تدريب على القنص، والتصويب بدقة على الهدف، وتقدير المسافات التي تجعل الهدف تحت مرمى النيران، وما في ذلك من استغلال سليم لما بين أيديهم من سلاح، فيحتفظوا به، ويستخدموه في حالة التأكد من إصابته الأهداف، ويوم الحديدية تحت الشجرة، بايعوه على أن لا يفروا [مسلم: 1856].

وفي قوله تعالى (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ) يَقُولُ (ص): أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ [مسلم: 1917]، مما يدل على التمرن على القتال، والتدريب المستمر، والتحذق في استخدام السلاح، وتطويره، وابتكار أساليب تمكن الجيش الإسلامي من مفاجأة العدو، فالإعداد مادي من أجل بناء قوة عسكرية رادعة، وفي القرآن (وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً) [آل عمران: 102]. ومعنوي بترسيخ أسس العقيدة الصحيحة، والاعتماد على الله تعالى.

= وَيُوصِي أَنْ يَكُونَ الْقِتَالُ كُلَّهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فحينما سُئِلَ: مَا الْقِتَالُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ فَإِنْ أَحَدْنَا يُقَاتِلُ غَضَبًا، وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً، فَقَالَ (ص): مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعَلِيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ U [البخاري: 123، ومسلم: 1904].

¹⁰ وانظر: فتح الباري، لابن حجر (306/7).

= وكان (ص) يربي أصحابه على الصبر عند لقاء الأعداء، والثبات وعدم الفرار. ففي بعض أيامه (ص) التي لقي فيها العدو انتظر حتى مالت الشمس، ثم قام في الناس، فقال: أيها الناس، لا تمنوا لقاء العدو، وسئوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف. [البخاري: 3025، ومسلم: 1742].

ومن دلائل صبرهم ما حدث به أبو موسى الأشعري، قال: خرجنا مع النبي (ص) في غزوة ونحن ستة نفر بيننا بعير نعقبه، فنقبت أقدامنا، ونقبت قدمائنا، وسقطت أظفاري، وكنا نلف على أرجلنا الخرق، فسُميت غزوة ذات الرقاع لما كنا نعصب من الخرق على أرجلنا [البخاري: 4055، ومسلم 1816]. إنه الصبر، والقدرة على التحمل، فأجسادهم تقطع، وأيديهم تشل، ولا يصدهم ذلك عن المضي في القتال، وإن المسلم ينبغي أن يكون دائماً أقدر على الثبات والصمود والصبر في ساحات الوغى.

= ويستخدم الحوافر معنوية ومادية، يشحذ بها الهمم، ويشجع بها جنوده على الرمي، وإصابة الهدف. فسعد بن أبي وقاص، يقول: نثل لي النبي (ص) كنانته يوم أحد. فقال: أرم فداك أبي وأمي [البخاري: 4128، ومسلم: 2412]. ويقول (ص) بعد الأحزاب: من يأت بني قريظة فيأتينني بخيرهم. قال الزبير: فانطلقت فلما رجعت جمع لي رسول الله (ص) أبويه. فقال: فداك أبي وأمي [البخاري: 3720، ومسلم: 2416].

واستخدم (ص) الحوافر المادية في حنين حين وزع الغنائم بطريقة مختلفة، حيث استمال قلوب الناس من المؤلفة قلوبهم، ومن غير المسلمين لينضموا للجيش الإسلامي، فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وأعطى عيينة مثل ذلك، وأعطى أناساً من أشرف العرب [البخاري: 3150، ومسلم: 1062].

= ويحث على تجهيز الغزاة، ورعاية أسر المجاهدين، فرسول الله (ص) يحث على الإنفاق ويوصي بالتبرع لشراء السلاح أو تجهيز المجاهدين بالعتاد، وذلك من عظيم حرصه على تسليح الجيش، وخروجه للقتال وهو مهياً معنوياً ومادياً، فيقول: من جهز غازياً في سبيل الله فقد غزا، ومن خلف غازياً في سبيل الله بخير فقد غزا [البخاري: 2843، ومسلم 1895].

= ويأمر بعدم التعرض للمدنيين أو قتلهم إلا من قبيل المعاملة بالمثل، فالأصل في التعامل مع غير العسكريين والمقاتلين من نساء وشيوخ وأطفال، هو عدم قتلهم،

والمحافظة على أشجارهم لا سيما المثمرة، وأموالهم، فسمة ديننا العظيم هو الرحمة والرفق واللين في معاملة الآخرين.

إنها ضوابط أدبية وضعها رسول الله (ص) للجنود في ساحات الحرب، فلا يعيشوا في الأرض الفساد، ولا ينتهكوا الحرمات، ولا يسلبوا الأموال، ومع ذلك إن شعر المسلمون من عدوهم الخديعة والخيانة والعدوان وغير ذلك من التصرفات التي تدل على بغضاء تبدو من أفواههم، وأكبر منه تخفيه صدورهم، فحينئذ لا يفلح في أمثالهم إلا الإثخان؛ لِيُشَرَّدَ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ، وليجدوا في المسلمين غلظة، وأن لا تأخذهم بأولئك رافة في دين الله تعالى.

إنَّ المجاهدَ في سبيلِ الله يضع نصب عينيه وصايا رسول الله (ص)، ومنها تقوى الله، فقد كان إذا أمرَ أميرًا على جيشٍ أو سريةٍ أوصاهُ في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرًا، ثم قال: اغزوا باسمِ الله، في سبيلِ الله، قاتلوا من كفرَ بالله، اغزوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا [مسلم: 1730]. وذلك إن لم يقاتلوا، فإن قاتلوا، قال جماهير العلماء: يقتلون، وأما شيوخ الكفار، فإن كان فيهم رأي قتلوا⁽¹¹⁾.

= وقد كان (ص) يُعلم أصحابه حقوق القادة، ومنها السمع والطاعة في المعروف، وأنَّ خطر المعصية عظيم، فهو القائل: اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، وَإِنِ اسْتَعْمَلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَشِيٌّ كَانَ رَأْسُهُ زَبِيئَةً [البخاري: 7142]، وفي أحد، يقول البراء: لَقِينَا الْمُشْرِكِينَ يَوْمَئِذٍ، وَأَجْلَسَ النَّبِيُّ (ص) جَيْشًا مِنَ الرُّمَّةِ، وَأَمَرَ عَلَيْهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جُبَيْرٍ، وَقَالَ: لَا تَبْرَحُوا، وَفِي: ... فَأَبَوْا، فَلَمَّا أَبَوْا صُرِفَ وَجُوهُهُمْ، فَأَصِيبَ سَبْعُونَ قَتِيلًا [البخاري: 4043]. فطاعة من يتولى الإمرة واجبة، وفي المقابل، فمن التقوى ألا يتعدى القائد على الجنود بالظلم والعدوان، بل يجهد لهم وينصح، وكان (ص)، يقول: مَا مِنْ أَمِيرٍ يَلِي أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ ثُمَّ لَا يَجْهَدُ لَهُمْ وَيَنْصَحُ إِلَّا لَمْ يَدْخُلْ مَعَهُمُ الْجَنَّةَ [مسلم: 142].

= ويعلم أصحابه استثمار الوقت، فيوم بدر يسرع في الخروج لملاقاة العدو، ويقول للصحابة: مَنْ كَانَ ظَهْرُهُ حَاضِرًا فَلْيَرْكَبْ مَعَنَا، ... فَأَنْطَلِقُوا حَتَّى سَبَقُوا الْمُشْرِكِينَ [مسلم: 1901]. إنه السبق إلى أرض المعركة، وتفقّد الأماكن؛ لا اختيار المناسب منها ليرابط الجنود فيه، وترك ما لا يناسب للعدو؛ ليضمن السيطرة على الأرض.

¹¹ انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (48/12).

وبعد الأحزاب. وقد نقض يهود العهد. يقول لصحابته: لَا يُصَلِّينَ أَحَدُ الْعَصْرِ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ [البخاري: 946. ومسلم: 1770]. فالمبادرة بالخروج إليهم، والإسراع في ذلك، ومحاصرتهم حال بينهم وبين الاستعداد الكامل، وأثرت المفاجأة على معنوياتهم. وروحهم القتالية. إنها الهمة والعزيمة والإرادة للقضاء على كل حركات التمرد التي تهدد أمن واستقرار البلاد. وغير ذلك من توصيات تدل على منهج قويمة لقيادة محكمة متفنة تشعر بالمسئولية.

= ومن آخر قراراته (ص) القيادة العسكرية الدعوة إلى إخراج اليهود والنصارى والمشركين من جزيرة العرب. فبعدما جرت المعارك بين النبي (ص) وبين اليهود. وترتب عليها إجماع قبائل، وقتل رجال قبيلة كما جاء في السيرة، وجرت بينه وبين النصارى معارك أخرى. هي مؤتة الموجهة إلى نصارى العرب، وتبوك الموجهة إلى الروم، وما ذلك إلا لعلمه بخطرهم على الإسلام والمسلمين، ظل (ص) يدعو إلى تنظيف الجزيرة العربية بإخراج غير أهل دين الإسلام منها، مما يؤكد ما سبق تقريره من النهي عن الاستعانة بهم أو الركون إليهم. فيوصى بإخراج المُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ [البخاري: 3053. ومسلم: 1637]. وَيَقُولُ: لِأُخْرِجَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ حَتَّى لَا أَدَعَ إِلَّا مُسْلِمًا [مسلم: 1767]. وأول من قام بتنفيذ وصيته عمر بن الخطاب الذي أجلى اليهود من خيبر، والنصارى من نجران. فعن ابن عمر أن عمر بن الخطاب أجلى اليهود والنصارى من أرض الحجاز، وأن رسول الله (ص) لَمَّا ظَهَرَ عَلَى خَيْبَرَ أَرَادَ إِخْرَاجَ الْيَهُودِ مِنْهَا، وَفِيهِ... فَفَقَرُّوا بِهَا حَتَّى أَجْلَاهُمْ عُمَرُ إِلَى تَيْمَاءَ وَأَرِيحَاءَ [البخاري: 2338. ومسلم 1551].

المبحث الرابع: قيم قيادية فعلها صحابة نوابغ أكفاء بطلب منه (ص) أو موافقته = فالقائد يوسد الأمور إلى أهلها، ويضع الرجل المناسب في المكان المناسب، ويكلف النوابغ بمهام قتالية، إنه اختيار الأشخاص ذوي القدرات.

من ذلك: يُعَيِّنُ (ص) أكثر من قائد للمعركة، فإن قتل الأول جاء الثاني مكانه. لما في ذلك من حفظ للجيش من الخلل إن قُتِلَ القائد، ففي غزوة مؤتة يحدد قادة الجيش، فَيُؤَمَّرُ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ، وَيَقُولُ: إِنْ قُتِلَ زَيْدٌ فَجَعْفَرُ، وَإِنْ قُتِلَ جَعْفَرُ فَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ [البخاري: 4261]. ومنه: معرفة جنوده والاستفادة من طاقات الأشخاص ذوي القدرات، ففي أحد يعطي السيف لأبي دجاجة الذي أخذه بحقه، ففلق به هام المُشْرِكِينَ [مسلم: 2470]. وَيَبْعَثُ عَشْرَةَ رَهْطٍ سَرِيَّةٍ

عَيْنًا، وَيُؤَمَّرُ عَلَيْهِمْ عَاصِمَ بْنَ ثَابِتِ الْأَنْصَارِيِّ [البخاري: 3045]. يلاحق العدو لإرعابه، وإدخال الخوف في قلبه، ليفر من الميدان.

= وأحياناً يطلب من الصحابة المنافحة بالشعر؛ لتكون وسائل إعلامية قوية موجّهة ضد الأعداء، مستثمرًا القدرات الموجودة. فحسان بن ثابت يهجو المشركين لخبرته في هذا المجال وباعه الطويل في الشعر والهجاء. ففي يَوْمَ قُرَيْظَةَ، يَقُولُ (ص) لِحَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ: اهْجُ الْمُشْرِكِينَ، فَإِنَّ جَبْرِيلَ مَعَكَ [البخاري: 4123، ومسلم: 2486]. وفي وقت آخر، حين قال: إِنَّهُ أَشَدُّ عَلَيْهِمْ مِنْ رَشْقِ بَالْتَبَلِ، قَالَ لِحَسَّانَ: إِنَّ رُوحَ الْقُدْسِ لَا يَزَالُ يُؤَيِّدُكَ مَا نَافَحْتَ عَنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ [مسلم: 2490].

= ويختارهم أحياناً من الشباب لممارسة مهاراتهم واكتشاف قدراتهم، فنجده يوكل قيادة جيش إلى أسامة بن زيد، ويبعث بعثاً يؤمره عليهم، وعمره عشرون سنة أو أقل، ويقول: وَأَيْمُ اللَّهِ، إِنْ كَانَ لَخَلِيقًا لِلْإِمَارَةِ [البخاري: 3730، ومسلم: 2423]. ويكلف علياً بحمل الراية في خيبر، وعمره آنذاك ثلاثون عاماً، ويقول: لِأَعْطَيْنَ الرَّايَةَ رَجُلًا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ يَدَيْهِ [البخاري: 2942، ومسلم: 2406].

= والقائد يتخذ قرارات عسكرية بإرسال العيون لاستطلاع أخبار الأعداء، ورصد تحركاتهم، وجمع أدق المعلومات والأسرار عنهم، ومعرفة أحوالهم. وهذا من أبرز أساليب رسول الله (ص) القتالية، وتكتيكاته في زرع جواسيس ومخابرات عسكرية تخترق صفوف الأعداء؛ وطليعة تجمع المعلومات، وتعرف مواقعهم، وتستطلع أخبارهم.

فَأَنْسَ، يَقُولُ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ (ص) بُسَيْسَةَ⁽¹²⁾ عَيْنًا يَنْظُرُ مَا صَنَعَتْ عَيْرُ أَبِي سُفْيَانَ، فَجَاءَ وَمَا فِي الْبَيْتِ أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرِ رَسُولِ اللَّهِ (ص)... قَالَ: فَحَدَّثَهُ

¹² قال القاضي عياض في إكمال المعلم (322/6): كذا في جميع النسخ بياء بائنتين تحتها بين السنين مصغراً، وكذا ذكره أبو داود، وأصحاب الحديث. والمعلوم في كتب السير: "بسبس" بياء واحدة غير مصغر، وهو بسبس بن عمرو، ويقال: ابن بشر، من الأنصار، من الخزرج، ويقال: حليفهم. قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (44/13): يجوز أن يكون أحد اللفظين اسماً له والآخر لقباً، وقوله: عيناً أي متجسساً ورفيقاً.

وقال ابن سعد في الطبقات الكبير (11/2): وقدم رسول الله e أمامه عينين له إلى المشركين يأتيانه بخبر عدوه، وهما بسبس بن عمرو وعدي بن أبي الزغباء.

الْحَدِيثُ، قَالَ: فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ (ص) فَتَكَلَّمَ، فَقَالَ: إِنَّ لَنَا طَلِبَةً، فَمَنْ كَانَ ظَهْرُهُ حَاضِرًا فَلْيَرْكَبْ مَعَنَا [مسلم: 1901].

وفي ليلة الأحزاب يحكي حذيفة قصة إرساله عيناً على المشركين، وقول رَسُولِ اللَّهِ (ص): أَذْهَبَ فَأْتِنِي بِخَيْرِ الْقَوْمِ وَلَا تَدْعُهُمْ عَلَيَّ [مسلم: 1788]. وكذا حينَ قَالَ (ص) مرتين: قَالَ مَنْ يَأْتِنِي بِخَيْرِ الْقَوْمِ، فَقَالَ الرَّبِيزُ: أَنَا، فَقَالَ النَّبِيُّ (ص): إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا، وَحَوَارِيَّ الرَّبِيزُ [البخاري: 2846، ومسلم: 2415]. وقال له: فَذَاكَ أَبِي وَأَمِّي [البخاري: 2846، ومسلم: 2415].

يقول ابن تيمية: جَوَّرَ الْأُئِمَّةُ الْأَرْبَعَةُ أَنْ يَنْغَمَسَ الْمُسْلِمُ فِي صَفِّ الْكُفَّارِ وَإِنْ غَلَبَ عَلَى ظَنِّهِ أَنَّهُمْ يَقْتُلُونَهُ إِذَا كَانَ فِي ذَلِكَ مَصْلَحَةٌ لِلْمُسْلِمِينَ⁽¹³⁾.

فعلى المسلمين أن يُعِدُّوا الرجال القادرين على جمع معلومات العدو من متابعة لتحركاتهم ومراقبة لسيرهم بطريقة خفية وبكتمان، حتى يكونوا على بصيرة وخبرة بما يدبرون ضدهم من مؤامرات، فرسول الله (ص) يبعث عيونهم في العدو لأخذ أدق المعلومات والأسرار عن أخبارهم.

200

SBARD
YIL / YEAR 13
SAYI / ISSUE 25
BAHAR / SPRING
2015/1

= ومن هذه المَهَامِ إضعاف جبهة العدو باغتيال قادتهم، فلقد تمَّ الاغتيال لعدد من أعداء الله الذين آذوا رسول الله وصحابه على يد بعض الصحابة بأمر منه (ص)، ومن ذلك، قوله مَنْ لَكَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ، فَإِنَّهُ قَدْ آذَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مُسْلَمَةَ: أُتِحُّ أَنْ أَقْتُلَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ فَأَتَاهُ فَلَمْ يَزَلْ يُكَلِّمُهُ حَتَّى اسْتَمَكَّنَ مِنْهُ فَقَتَلَهُ [البخاري: 3031، ومسلم: 1801]. وقد بَوَّبَ عليه البخاري في موضع بقوله باب الفتك بأهل الحرب⁽¹⁴⁾. وقال ابن حجر فيه جواز قتل من سبَّ رسول الله (ص)⁽¹⁵⁾.

فكعب بن الأشرف شاعر يهودي، نقض عهده، وأمعن في إيذاء المسلمين، وشكل خطراً كبيراً على أمن وحياة قائد الدعوة، فلم يتوقف عن هجاء رسول الله (ص)، وتحريض كفار قريش عليه، ولما لم ينزع تريض به المسلمون وفتكوا به في السنة الثالثة للهجرة⁽¹⁶⁾.

¹³ مجموع الفتاوى (540/28).

¹⁴ كتاب الجهاد، الباب برقم (159)، قبل الحديث، برقم (3032).

¹⁵ فتح الباري (143/5).

¹⁶ الصرام المسلول، لابن تيمية (151/2). ورواه الواقدي في مغازيه (187/1).

قال ابن تيمية: وما ذكره الواقدي عن أشياخه يوضح ذلك ويؤيده، وإن كان الواقدي لا يُحتجُّ به إذا انفرد، لكن لا ريب في علمه بالمغازي، واستعلام كثير من تفاصيلها من جهته، ولم نذكر عنه إلا ما أسدناه عن غيره.

وَبَيَّعَتْ (ص) إِلَى أَبِي رَافِعِ بْنِ أَبِي الْحَقِيقِ الْيَهُودِيِّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ. فَأَمَرَ عَلَيْهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ، وَكَانَ أَبُو رَافِعٍ يُؤْذِي رَسُولَ اللَّهِ (ص) وَيُعِينُ عَلَيْهِ، وَكَانَ فِي حَضْنِ لَهُ بِأَرْضِ الْحِجَازِ، فَلَمَّا دَنَوْا مِنْهُ وَقَدْ غَرَبَتِ الشَّمْسُ وَرَاحَ النَّاسُ بِسَرِّحِهِمْ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ لِأَصْحَابِهِ: اجْلِسُوا مَكَانَكُمْ فَإِنِّي مُنْطَلِقٌ ... وَذَكَرَ قِصَّةَ قَتْلِهِ، وَإِخْبَارَ رَسُولِ اللَّهِ (ص) الْخَبَرَ [البخاري: 4039] (17).

= وقتل الجواسيس وأكابر المجرمين، لشدة أذاهم لرسول الله (ص)، وللمسلمين.

فَعَامَ الْفَتْحِ، جَاءَ رَجُلٌ، فَقَالَ، إِنَّ ابْنَ خَطْلٍ مُتَعَلِّقٌ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ، فَقَالَ (ص) أَقْتُلُوهُ [البخاري: 1846، ومسلم: 1357] (18).

وَأَتَى النَّبِيَّ (ص) عَيْنٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَهُوَ فِي سَفَرٍ فَجَلَسَ عِنْدَ أَصْحَابِهِ يَتَحَدَّثُ ثُمَّ أَنْفَتَلْ فَقَالَ النَّبِيُّ (ص): اطْلُبُوهُ وَأَقْتُلُوهُ، فَقَتَلَهُ، فَغَفَلَهُ سَلْبَهُ [البخاري: 3051، ومسلم: 1754] (19).

هذه بعض القيم التي أحببت في هذا البحث أن أجليها وأبينها، لعلها تكون لبنة في طريق صلاح الأمة ورفعتها، وإصلاح قيادتها، والتساؤل هو: هل هذه القيم يمكن تطبيقها اليوم؟ والجواب: على المسلمين أن يطبقوا ما أمكن تطبيقه وفق الإمكانيات. وأختم في إجابتي بما يُظنُّ أن أبدأ به، وهو: لا يغيب على العلماء والدعاة والقادة أحوال المسلمين اليوم، وما هم فيه من الضعف والعجز عن مواجهة الأعداء، وذهاب دولتهم، لا يغيب عنهم هذا الواقع وهم يعيشونه من غلبة الكفر وتسلبه، إنَّ هذا الدين يريد للمؤمنين أن يكونوا أعزة بالقوة والشدة والرفعة والمنعة والغلبة على الكافرين المحاربين، فإننا أمة إذا أصابهم البغي هم ينتصرون، ولن يهدأ للمخلصين من أبناء هذه الأمة بال حتى تعود أرض المسلمين ومقدساتهم إليهم. ندعو الله تعالى أن يكون ذلك قريباً، والحمد لله رب العالمين.

وخلاصة النتائج: أن رسول الله (ص) هو القدوة الحسنة التي يجب أن نتمثلها في حياتنا المعاصرة، لا سيما القادة، ومنها طريقته القيادية في اتخاذ القرارات المختلفة.

¹⁷ وانظر: فتح الباري، لابن حجر (156/6، 345/7).

¹⁸ وانظر: معالم السنن، للخطابي (288/2). والتمهيد، لابن عبد البر (157/6).

¹⁹ وانظر: شرح النووي على صحيح مسلم (67/12)، وفتح الباري، لابن حجر (186/6).

وقد رأينا ما تعكسه هذه القيم من فطنة وبقظة. وحكمة وحكمة. أشير إلى بعضها:

أما إهدار دماء شردمة قليلين من أهل مكة حين جاء نصر الله والفتح فيعود إلى أنهم كانوا أكابر مجرميها، وأئمة الكفر، ولطالما أذاقوا المسلمين الأمرين تعدياً وكيداً، فحقهم أينما ثقفوا أن يؤخذوا ويقتلوا تقتيلاً، ومنهم ابن خَطَل.

وأما ما قطع من لينة أو تركها قائمة على أصولها فيأذن الله، وليخزي الفاسقين من بني النضير، حيث إنَّ اختباءهم في حصونهم كان نذيراً بأنَّ يرهقوا المسلمين في طول الحصار، فضلاً عن اصطيادهم بالنبال من ثقبوب الحصون، فكان لا بد من تدمير اقتصادهم لقطع آمالهم في العيش بالمدينة، فيقبلوا بالجملاء.

إنَّ تطهير المدينة من رجسهم كان بسبب نقضهم عهدهم في أحلك الظروف، وانضموا إلى حرب الإبادة التي كانت تهدف إلى استئصال المسلمين من المدينة.

202

S B A R D
YIL / YEAR 13
SAYI / ISSUE 25
BAHAR / SPRING
2015/1

وأما سَمَل عيون العرنين فهو من القصاص؛ إذ فعلوا براعي الإبل ذلك وقتلوه، ثم استاقوا الإبل كقطاع الطرق المحاربين.

إنَّ على القادة المعاصرين أن يضعوا هذه الحوادث والقرارات الاستثنائية في سياقها، حتى لا نعطي فرصة لما يحاول أعداؤنا إلصاقه بديننا من تهمة العنف والإرهاب، فإسلامنا العظيم هو دين رحمة للعالمين، وإننا خير أمة قد أخرجت للناس، أي لإخراجهم من الظلمات إلى النور، وما القتال والحرب إلا ضرورة يلجئنا إليها المتألهون في الأرض، الذين يريدون الاستئثار بالمال والقرار.

Informative Abstract

Prophetic Leadership Ethics: A Reading

In The Two sahihs

The research reveals a side of the leadership ethics of the Prophet, especially the military ones. Through his guidance to leaders of platoons, the prophet set eminent rules and values that are based on the deployment of the good for the people. It aims to raise the word of Allah almighty, and to defend land, honour and human dignity. This guidance is a beacon for Muslims to follow and be guided by its teachings.

The search begins with stating qualities and characteristics of a leader in Sunnah. Some of these qualities are: the leader's connection to Allah through his prayers, his trust and faith in Allah's support, being humble, decisive and brave, consulting the soldiers and engaging them in the important decisions, and being kind with his people.

Under the theme of leadership ethics and values of the Messenger of Allah, the research indicates the acts of the Messenger, peace be upon him, that show his courage in fighting in the front line before his companions in battles, his resilience in confrontation, his subtle views on military promoting power and surprising the enemies if necessary and his principle of not employing or accepting help from polytheists.

In a third section the research explains the commandments of the Messenger to leaders to be attentive and alert to urge their soldiers to fight, and to remind them of Allah's rewards for them. Also, a leader should be able to motivate the staff to be strong and persistent when fighting the enemies and protecting the borders. On the other hand, a Muslim leader should take care of the soldiers' families and inspire his soldiers morally and physically. This section also states that a leader should teach his soldiers to respect the rules and not to mutilate the corpses of the enemies, to abide by his orders, and to expel Christians and Jews from the Arabian Peninsula.

The research is concluded by a forth section that discusses leadership ethics applied by the prophet companions either following his commands or getting his consent. For example, the prophet asked Hassan ibn Thabet to defend Islam in his poetry and to satirize the polytheist; and made Osama ibn Zaid the leader of the Muslim army at a young age. He also sent Hothaifa to spy on the polytheists at the night of Ahzab battle; and sent Mohammed ibn Maslama to kill the jewish poet Ka'b ibn al-Ashraf, and Abdullah ibn Atik to kill the jewish Abu Rafi'i ibn Abi Al-Haqiq and Ibn al-Akhtal because they harmed Allah and His Massenger.

The research covers also other deeds and sayings by the prophet, peace be upon him, that reflect his statesmanship, attentiveness, and intelligence; and make him a role model and a leader that we should follow his lead in our modern-day.

Keywords: Prophet, leadership, hadith, al-Buhari, Muslim

Kaynakça

El-Hattâbî, *Maâlimu's-sunen*, el-matbaatu'l-ilmîyye, Haleb 1932.

İbn Hacer el-Askalânî, *Fethu'l-bârî*, 1-13, tah: Abdulazîz b. Abdullâh b. Bâz, Dâru'l-marife, Beyrut 1379.

İbn Hazm el-Endelusî, *el-Muhallâ*, 1-12, Dâru'l-fikr, Beyrut.

İbn Kayyim el-Cevziyye, *Ahkâmu ehli'z-zimme*, 1-3, tah: Yûsuf b. Ahmed el-Bekrî, Şâkir b. Tevfîk el-Ârûrî, Remâdî li'n-neşr, Demmâm 1997.

İbn Muflih el-Makdisî, *el-Âdâbu's-şer'iyye*, 1-3, âlemu'l-kutub.

İbn Sad, *et-Tabakâtu'l-kubrâ*, 1-8, tah Muhammed Abdulkâdir Atâ, Dâru'l-kutubî'l-ilmîyye, Beyrut 1990.

İbn Teymiyye, Takiyuddîn Ebu'l-Abbâs, *İktidâu's-sirâti'l-mustekîm*, 1-2, tah: Nâsir Abdulkerîm el-Akl, Dâru âlemi'l-kutub, Beyrut 1999.

İbn Teymiyye, Takiyuddîn Ebu'l-Abbâs, *es-Sârimu'l-meslûl*, tah: M.Muhyiddîn Abdulhamîd, el-haresu'l-vatanî, el-Memleketu'l-Arabiyyetu's-Suûdiyye.

el-Kâdî İyâd, Ebu'l-Fadl, *İkmâlu'l-mu'lim*, 1-8, tah: Yahyâ İsmâîl, Dâru'l-vefâ, Mısır 1998.

Nâsiruddîn el-Elbânî, *İrvâu'l-galîl*, 1-9, el-mektebu'l-İslâmî, Beyrut 1985.

en-Nevevî, Ebû Zekerîyyâ, *Şerhu'n-Nevevî alâ-Sahîhi Muslim*, 1-18, Dâru İhyâi't-turâs, 2.bs. Beyrut 1392.

eş-Şâfiî, Ebû Abdillâh M.b.İdrîz, *el-Umm*, 1-8, Dâru'l-ma'rife, Beyrut 1990.

eş-Şevkânî, M.b.Ali, *Neylu'l-evtâr*, 1-8, tah: İsâmu'd-dîn es-sabâbîti, Dâru'l-hadîs, Mısır 1993.

et-Tahâvî, Ebû Ca'fer Ahmed, *Muhtasaru ihtilâfi'l-ulemâ*, 1-5, tah: Abdullâh Nezîr Ahmed, Dâru'l-beşâiri'l-İslâmîyye Beyrut 1417.